فى سبيل الأزهر

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

أعتقد أنى لا أتجاوز الحقيقة حين أقول إن كلمات الأستاذ الزيات تنزل برداً وسلاماً على قلوب المخلصين للأزهر ؛ وإنهم يرون فيها بريقاً من النور يضيء لهم سبيل الإصلاح فيما يبتغون للأزهر من إصلاح

وللرسالة فى الأمة المصرية وفى الشرق الإسلامى جميعاً مكانتها السامية الممتازة التى تجعل لكل ما تعالج من موضوعات أهمية خاصة، لا يستطيع أحد معها ألا يعطيها ما هى حقيقة به من التقدير والعناية

لذلك كانت دعوتها لإصلاح الأزهر جديرة بألا تمر كغيرها من دعوات الإصلاح، وكانت جديرة بأن يتجاوب صداها فى أجواء الأزهر مدوياً عالياً ، فيردده رجاله عارضين صوراً من أدوائه راجين أن تعالج علاجاً ناجعاً ، حتى تنحسر عنه ولا تنتقل عدواها إلى أبنائه الناشئين

الأزهر من غير شك محتاج إلى الإصلاح فى كثير من نواحيه، والأزهريون الآن متطلعون إلى من يداوى ما يحسون به من علل ليست من صنيعهم ولا يد لهم فيها ، وإنما انحدرت إليهم مع الزمن ميراثاً ثقيلاً ؛ وما دامت النفوس مستعدة والنيات خالصة فسيأتى اليوم الذى ينفض فيه الأزهر عن نفسه كل ما يشوه جماله أو يسىء رسالته

وإن من البشائر التى تطمئن على نجاح هذا السعى ونفاذ هذه الدعوة إلى القلوب ، اشتراك الأزهريين أنفسهم فى معالجة هذه العيوب ومحاولة التخلص منها ؛ ولن يقدر أحد على إصلاح الأزهر كما يقدر عليه أبناء الأزهر ؛ فقد حاولت ذلك حكومات فيما مضى فلم يتأت لها ما تأتى لابنه البار « محمد عبده » ولم يقدر أحد على ما قدر عليه فى هذا الشأن مع ما وضع فى سبيله من عراقيل وما أرجف به عليه من ترهات وأكاذيب ؛ لأن دعوة الحق لا بد أن تجد سميعاً ولا بد أن تتغلغل فى النفوس وأن ينصرها ـ من حيث لا يشعر ـ أولئك الذين يعملون جاهدين على كيدها والصد عنها ، ودعوات الإصلاح يخدمها خصومها كما يخدمها أنصارها

وها قد أصبح الأزهر يؤمن بمبادئ الأستاذ الإمام ويتتبع مناهجه ، ويدل بذلك حتى صار من فخر الرجل فى الأزهر الآن أن ينتسب إلى الأستاذ الإمام تلميذاً أو مسترشداً أو صديقاً ، بعد أن كان فى حياته هدفاً لسهام الطاعنين ونبال الحاقدين

وفى يد الأزهر الآن فرصة ثمينة لا يسوغ له أن يضيعها أو يهمل استغلالها، هى قيام الإمام الثانى الأستاذ المراغى على رياسته وتوجيهه ، ومن ورائه فى ذلك طائفة من المخلصين للأزهر المقتنعين بفكرة الإصلاح قرأت خطبه وأحاديثه ودرستها دراسة فاحصة ممعنة فاتخذت لنفسها وجهة الخير منها ، وحرصت أن تهتدى إلى طريق النجاح بها . ولست أحب أن أسمى هؤلاء كما سماهم الأستاذ الزيات « شباب المراغى » فإن روح المراغى لم تكن قاصرة على التأثير فى الشباب فحسب ، وإنها لأشد قوة وأبعد أثراً من ذلك ؛ فقد أثرت فعلاً فى شيوخ قد جاوزوا عهد الشباب وخلفوه ، فأجدر بنا أن نسمى هؤلاء وهؤلاء « مدرسة المراغى »

ولسنا نلقى هذا الكلام على عواهنه ، فإن الأستاذ المراغى حينما خطا خطوته الجريئة فى إصلاح بعض القوانين المتصلة بالأحوال الشخصية وقف فى طريقه إذ ذاك كثير من العلماء، وعلى رأسهم عالمان فاضلان ألفا رسالة ذكرا فيها أنه لا يجوز الخروج عن المذاهب الأربعة التى أجمعت عليها الأمة ؛ فهل تدرى أيها القارئ أنهما الآن يعملان عضوين بارزين فى لجنة الأحوال الشخصية التى لا تقف فيما تختار عند المذاهب الأربعة! أليس هذا أثراً لروح المراغى واستجابة لحاجة الإصلاح التى يستوى عندها الشيب والشباب ؟

هذه المدرسة الصالحة يعلق عليها الأزهر الحديث آمالاً جساماً وتنتظر منها الأمة نهضة قوية تساير نهضتها فى كل نواحى التقدم ؛ تنتظر منها أن تخرج للناس كتباً واضحة الأسلوب جيدة المعنى خالية من التعقيد والغموض ، وأن تفهم الجو المحيط بها فهماً صحيحاً فلا تكتفى بالعيش فى ظلال كتب تمثل عصوراً خلت ، ربما كانت هذه الكتب صالحة لها موفية بحاجتها ، وهى الآن عاجزة عن حل المشاكل التى تعترض الناس فى معاملاتهم ونظم حياتهم ؛ تنتظر منها اشتراكاً فعلياً فى توجيه الثقافة القومية فى البلاد، فى الأحاديث التى تذاع، والمقالات التى تنشر، والمحاضرات التى تلقى، وفى تعليم الشعب وإرشاده بأسلوب لا يجافى روح العصر الذى نعيش فيه؛ فقد مضى عهد الجمود والوقوف عند النصوص من غير مراعاة لروحها وظروف أحوالها والعوامل التى أثرت فيها، تنتظر منها كذلك أن تبين بالعمل لا بالقول أن الشريعة الإسلامية صالحة